تقدير موقف

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

ما الذي يمكن للعراق أن يتعلّمه من فوز زهران ممداني

ياسر كوتي

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

ما الذي يمكن للعراق أن يتعلّمه من فوز زهران ممداني

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط /قسم الأبحاث /الدراسات السياسية

الاصدار / تقدير موقف

الموضوع / السياسة الداخلية والخارجية، شؤون إقليمية ودولية

ياسر كوتي/ طالب دكتوراه في العلوم السياسية بجامعة بوسطن، ومحلّل في شؤون الشرق الأوسط يتمتع بأكثر من عقدٍ من الخبرة في العمل داخل العراق ودراسته.

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2025

www.bayancenter.org

info@bayancenter.org

Since 2014

في الليلة الماضية في مدينة نيويورك، حدث أمرٌ لافت للانتباه؛ فقد انتُخب زهران ممداني - المولود في أوغندا، والمسلم، ونجل المخرجة الهندية والمنظّر السياسي الأوغندي - عمدةً لإحدى أكثر مدن العالم تنوّعًا. إن فوزه، رغم بُعده الجغرافي، ينبغي أن يُحدث رجّة هادئة في الأوساط السياسية خارج حدود الولايات المتحدة، بما في ذلك العراق، الذي من المقرر أن تُجرى فيه الانتخابات البرلمانية في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر.

لم يكن انتصار ممداني متعلقًا بالسياسة فحسب، بل كان مرتبطًا أيضًا بالاتصال والتواصل. وهنا تحديدًا يكمن مكمن إخفاق الطبقة السياسية في العراق.

عندما يتوقف الناخبون عن الإصغاء

في الليلة نفسها، عدتُ إلى المنزل من جامعة بوسطن، حيث أدرس وأعمل، فوجدت زوجتي تتابع قناة «الشرقية نيوز». كان على الشاشة أحد المرشحين للبرلمان يتحدث عن "برنامجه الانتخابي" قبيل انتخابات الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر. وبعد بضع دقائق من المقابلة، التفتت إليّ زوجتي وسألت: "عمّ يتحدث بالضبط؟. أصغيت جيدًا، ولم أستطع أن أجيبها. بل إن مقدمة البرنامج نفسها قاطعت المرشح قائلة: "لكن هذا ليس من صلاحياتكم، فهذا عمل السلطة التنفيذية"، في تعبير واضح عن انزعاجها من قائمة التجريدات والوعود التي بلا معنى محدّد. كان المرشح، بعبارة معتدلة، غير مقنع.

ذلك التبادل البسيط عبّر عن مشكلة أكبر بكثير في السياسة العراقية: الفجوة بين الكلمات والمعنى، وبين السياسيين والشعب الذي يسعون إلى تمثيله.

لكن هذه ليست الحالة الوحيدة بأي حال. فما زلتُ لم أرَ مرشحًا واحدًا يتحدث بخطة ملموسة لمعالجة هموم الناس اليومية. وبدلًا من ذلك، يكتفون بوعود من قبيل "إصلاح النظام التعليمي" و"تحسين الرعاية الصحية" و"إنهاء أزمة الكهرباء"، وكأن أعضاء البرلمان يمكنهم ببساطة أن يلتقطوا مفتاحًا ويصلحوا الشبكة الكهربائية. حتى أولئك الذين يبدون أكثر استعدادًا ما زالوا يستحضرون البركة الإلهية بدلًا من السياسة العامة. حتى قادة الأحزاب، الذين أمضوا عقودًا في السلطة، لا يبدون أكثر نقاءً. فهم غالبًا ما يتحدثون بعبارات فضفاضة عن "السيادة" أو "مكافحة الفساد"، من دون أن يقدّموا، في المقابل، مسارًا مؤسسيًا واحدًا لتحقيق تلك الأهداف.

وفي الوقت نفسه، تواصل الأغلبية العراقية المحبطة - والتي يُقدّرها البعض بنحو 80 في المئة من السكان - النظرَ إلى المشهد السياسي بعين الريبة والإنهاك. لقد أصبحت هذه الأغلبية مُغتربة، لا لأنها غير مبالية بطبيعتها، بل لأن أحدًا لم يقدّم لها سرديةً تحمل الأمل أو إمكانية التحسّن. فحين يغيب الأمل بمستقبلٍ أفضل، لا يعود هناك ما يدفع المواطنين إلى قضاء يومٍ في التصويت لمرشحين لا يختلفون في شيء عن أولئك الذين خيّبوا آمالهم سابقًا. بعبارة أخرى، فإن اللامبالاة ليست انعدام اهتمام، بل هي حُكمٌ على أداءٍ غير مقنع للطبقة السياسية.

وضوح ممداني

نعود إلى ممداني، فقد بُنيت حملته الانتخابية، في جوهرها، على الوضوح الأخلاقي والعملي. لقد خاض الانتخابات في مواجهة المؤسسة السياسية في نيويورك، وهزم الحاكم السابق أندرو كومو، وهو رجل ينتمي إلى سلالةٍ سياسية ويحظى بدعمٍ مؤسسي واسع. لم يتظاهر ممداني بأنه "كلّ شيءٍ للجميع"، بل كان يساريًا صريحًا، مسلمًا دون اعتذار، ومركّزًا بوضوح على قضايا ملموسة: النقل العام المجاني، والرعاية الشاملة

للأطفال، وتجميد الإيجارات، ورفع الحد الأدنى للأجور.

لكن ما جعل حملته فعّالة لم يكن مجرد قائمة السياسات الملموسة، بل التماسك السردي الذي جمعها. فكلّ خطاب، وكلّ مقطعٍ مصوّر، وكلّ تغريدةٍ، كانت تعود إلى الوعد المركزي ذاته: "هذه المدينة ملكُ لكم." كانت رسالةً تجاوزت حدود الأيديولوجيا، ولجيلٍ فقد الثقة في السياسة التقليدية ويعاني هشاشةً اقتصادية، لامست رسالةُ ممداني حول الانتماء والتمكين وجدانهم بعمق.

لقد أدرك ممداني ما ينساه كثيرٌ من السياسيين: أن السياسة هي فنّ سرد القصص، وأن السرد يبدأ بالتعاطف. أمّا المرشحون العراقيون، فعلى النقيض، نادرًا ما يروون قصةً قادرة على أن تلامس الناس أو تثير فيهم صدىً حقيقيًا.

القصة المفقودة في العراق

إذا جرّدنا الخطاب السياسي من ضجيجه، سنجد أن الرسالة السياسية الناجحة تجيب عن خمسة أسئلة بسيطة:

ما الذي يجعلك مؤهلًا؟

ما الذي تراه صوابًا، وما الذي تراه خطأً؟

ماذا ستفعل من أجلي، ومن أجل أسرتي، ومحافظتي، وبلدي؟

لماذا ينبغي أن أثق بك؟

ولماذا أنت أفضل من الآخرين؟

معظم المرشحين العراقيين لا يجيبون عن أيٍّ من هذه الأسئلة بالوضوح المطلوب. الأمر لا يتعلّق بسرد السِيَر الذاتية، لأن الناخبين لا يهتمون بتاريخك الوظيفي في القطاع العام، أو بالشهادات التي حصلتَ عليها

- من يعلم من أين. إن التفاخر بتضحيات الحزب، دون تفسيرٍ لكيفية ترجمة ذلك التاريخ إلى حُكمٍ أفضل في الحاضر، لا يفيد أحدًا. وكذلك الحال مع الوعد الطقسي بالإصلاح من دون توضيح الطريق إليه.

والأسوأ من ذلك أن المرشحين يتجنبون إخبار الناخبين بسبب ترشّحهم أصلًا. فعبارات من قبيل "سأصلح النظام"، و"سأنهي الفساد"، و"سأحمي الشعب" تبدو جميلة عند سماعها، لكن كيف تحديدًا؟ وبأي سلطة؟ ومن خلال أي آليات؟ والأهم من ذلك، ما الذي يدفعك حقًا إلى ذلك؟ للأسف، في العراق، أصبحت السياسة عرضًا للنوايا من دون عبء التنفيذ.

حتى رئيس الوزراء الحالي محمد شياع السوداني - الذي يُعدّ من أكثر القادة العراقيين كفاءةً في السنوات الأخيرة - واجه صعوبة في تحويل سجله العملي إلى رسالةٍ سياسيةٍ فعّالة. فلديه منبرٌ، ومنصّة، وإنجازات يمكن الإشارة إليها، ومع ذلك تبقى لغته الاتصالية مجرّدة وبيروقراطية، أسيرةَ الخطاب التكنوقراطي الذي لا يمسّ الناس العاديين.

ولو كنتُ أقدّم له المشورة، لقلت له أن يتحدث لا كرئيسِ وزراء، بل كجارٍ قريب: «أنتم تعانون من نقص الكهرباء منذ عام 1990. إذا صوّتّم لي، فسأنجز المهمة وأوفّر لكم كهرباء على مدار الساعة بحلول عام 2027. أحتاج إلى أصواتكم لأُكمل ما بدأتُه.» هذا هو ما يبدو عليه الخطاب السياسي الفعّال: مباشر، عملي، وشخصي. إنّه يمنح الناخبين مصلحةً حقيقية في فوزك.

قوة الأمل

إن الثمانين في المئة من العراقيين الساخطين ليسوا غير قابلين للوصول، بل ينتظرون من يجعل السياسة ذات معنى بالنسبة إليهم. فالأمل ليس شعورًا مجرّدًا، بل موردٌ سياسي. هو ما يُقنع شابًا عاطلًا عن العمل في الناصرية، أو أرملةً في الموصل، بأن التصويت له قيمة، وبأن الغد قد يكون مختلفًا لهم ولأبنائهم.

لكن الأمل يجب أن يكون محدّدًا، له ملامح وخطة ووعدٌ يرتبط به. لم يكن "أمل" ممداني تفكيرًا رغائبيًا أو خطابًا إنشائيًا، بل وعدًا بالسكن الميسور، والنقل العام المجاني، والعمل الكريم. لقد كان أملًا بخارطة طريق.

أمّا في العراق، فقد جُفّف الأمل - للأسف - بفعل التكرار. فكل أربع سنوات، تظهر الوجوه نفسها بالشعارات نفسها عن "التغيير" و"الإصلاح" و"السيادة"، فيما يعرف الناس نهاية الفيلم قبل أن يبدأ. إن استعادة الأمل تعني التحدث بلغةٍ سياسية جديدة: لغةٍ تعترف بالماضي ولكن ترفض تطبيعه، وتُركّز على معالجة المشكلات اليومية بدلًا من الدفاع عن الإرث السياسي.

الخطاب بوصفه فعلَ احترام

أحد الدروس الدقيقة من حملة ممداني الانتخابية هو أن الخطاب الواضح ليس مجرد سياسةٍ ذكية، بل هو شكلٌ من أشكال الاحترام تجاه الناخبين. فعندما يتحدث السياسيون بوضوح، فإنهم يُقرّون بذكاء الناخبين؛ وعندما يتحدثون بعباراتٍ غامضة، فإنهم يهينونهم.

إن الناخبين العراقيين محبطون، لكنهم ليسوا غير مبالين. لقد سمعوا، على مدى عقود، شعاراتٍ فارغة، ولم يعد لديهم أيّ صبرٍ على المزيد منها. إن ما يتوقون إليه هو التحديد:

كيف ستجعل الكهرباء أكثر استقرارًا؟

كيف ستخلق فرصَ عملٍ للخريجين؟

كيف ستمنع جولةَ الفساد التالية؟

كلّ سؤالٍ من هذه الأسئلة يمثل فرصةً لبناء خطابٍ ملموس. لقد كانت حملة ممداني مليئةً بهذه التفاصيل: حافلاتٌ مجانية، وتجميدُ للإيجارات، ورعايةٌ للأطفال، مع خطةٍ واضحةٍ لتمويلها. وحتى عندما سخر النقاد من أفكاره وعدّوها راديكاليةً أكثر من اللازم، قدّر الناخبون كونها مفهومةً وواضحة من الرمزية إلى الجوهر.

إن الديمقراطية في العراق، رغم عيوبها، حقيقية. فالانتخابات تُجرى، والأصوات تُحصى. لكن الديمقراطية، في غياب خطابٍ سياسي موثوق، تتحول إلى صدى للشعارات وخطاباتٍ غير منتجة.

ويُذكّرنا فوز ممداني بأن السياسة يمكن أن تُبعث من جديد بالإخلاص لا بالاستعراض. فصعوده من ناشطٍ مجتمعي إلى صاحب أعلى منصبٍ في نيويورك لم يكن حتميًا، بل بُني على الإيمان بأن الناس ما زالوا يستجيبون للأمل عندما يكون قائمًا على الواقع. وينبغي ألا تغيب هذه الدروس عن الطبقة السياسية في العراق. فالمشكلة ليست أن الناخبين توقّفوا عن الإصغاء، بل أن السياسيين توقّفوا عن التحدث بلغةٍ تستحق أن تُسمع.

الطريق إلى الأمام

إذا أراد المرشحون العراقيون أن يتعلموا شيئًا من فوز ممداني، فهو الآتي: الناخبون لا يُكافئون الأعلى صوتًا، ولا الأغنى، ولا الأكثر تديّنًا؛ بل يُكافئون الأصدق، والأوضح، والأكثر تعاطفًا.

إن الحملة الناجحة لا تحتاج إلى ألف وعدٍ مجرّد، بل إلى قصةٍ واحدةٍ متماسكة عن كيفية استخدام السلطة لتحسين حياة الناس. يجب أن

يكون المرشح قادرًا على أن يقول، في جملةٍ واحدة، لماذا يترشّح وما الفرق الذي سيُحدثه. عليه أن يتعلم كيف يربط سيرته بالغاية، والقناعة بالكفاءة، والتعاطف بالفعل.

لم يكن فوز ممداني متعلقًا بالأيديولوجيا، بل بالتواصل. لقد كان تذكيرًا بأنه، حتى في عصر الاستقطاب، تفوز الرسالة الأبسط، «أنا أراك، وأسمعك، وأنا هنا لأجعل حياتك أفضل». وإلى أن يتعلّم السياسيون العراقيون أن يقولوا ذلك - ويعنوه فعلًا - سيواصلون الحديث في الفراغ، متجاوزين أولئك الذين يزعمون تمثيل مستقبلهم.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org